رفيق الصبـــــا(*)

للأستاذ محمد مندور

ها أنا اليوم أتعاسك فأستطيع أن أذكر رفيق صباى الدكتور محمد الشحات أيوب الذى نقلت إلى الصحف خبر وفاته . ولقد بكاه قلبى فكان البكاء رحمة من الله وقد أوشكت حياتى أن تختنق ضيقاً بوفاته .

. أيوب رفيق صباى منذ مدرسة الآلى الابتدائية بمنيا القمح سنة ١٩١٧ إلى آخر عهدنا بتحصيل العلم سنة ١٩٣٩ بباريس .

وهو زميلى فى دراستى ، كان يحب كما أحب حضارة اليونان لأنها تسمو بالروح إلى أفق لا يمكن أن يدركه إلا من يصل إليه بنفسه بعد جهد طويل . ولقد علقت روحه بمثل اليونان : الخير والحق والجمال ، فأبغض الظلم والشر والقبح . من لى اليوم برفيق سواه ؟ كنت ألقاه فنرفع من قلوبنا بذكر من نحب من كتاب تلك الحضارة المشرقة . ولقد عرف أيوب كما عرفنا مرارة الظلم الذى ينزله الجهل بالنفوس الخيرة . ولقد تعزى أيوب كما تعزينا بالقيم الروحية . ولقد جاهد أيوب معنا لأننا عقدنا العزم على أن نكسب النفوس بأيماننا . وها هو أيوب يغادرنا ونحن لم نكد نبدأ الشوط . أيها الأخ الراحل : لقد كنا بحاجة إليك . ها أشعة الأمل تشرق فى الأفق البعيد . عزيز على نفسى أن نستأثر بنصيبك فيها . اللهم املأ قبره ضوءاً . اللهم اهد إليه ضوء قلوبنا .

قد يجهل الناس أيوباً ، فهل لى أن يصدقونى إن قلت إنه أمل خبا ، أمل قوى لا أعرف أملاً يساويه . لقد كان أيوب « مدرس » التاريخ القديم بجامعة فؤاد الأول « أستاذاً » منقطع النظير . كانت له قدرة عجيبة على البناء التاريخى . كنت تراه يجمع مواده لا من ملخصات التاريخ بل من مصادر التاريخ . وكان رحمه الله

(*) أرسل هذه الكلمة لمجلة الرسالة الغراء لأن الدكتور أيوب له بها عهد ، والكل يذكر بلا ريب السلسلة التى ابتدأها بها عن « الشخصيات التاريخية » ، ونفذ منها « تيموستكل » . وقد كانت فكرته رحمه الله أن يحاول فى التاريخ ما أحاوله فى الأدب ، فينشر « شخصيات تاريخية » فى الرسالة كما أنشر أنا « نماذج بشرية » فى الثقافة ؛ وبذلك حسب وحسبت أننا نساهم فى الحركة الفكرية بنصيب ما . ثم إن اشتغال الزميل العزيز بالانتهاء من رسالته للدكتوراه صرفه عن الاستمرار فى الموضوع فتركه مؤقتاً على أن يعود إليه فيما بعد . وها هو الموت يسبقه إلى ما أراد . اللهم آنس وحشته .

الظريف ... ثم ما شئت من مزاح ومُزاح ، ورقص وشدو ، وبكاء وأنين . كل أولئك ما هزَّ الفيلسوف وما أثر فيه .

لقد قطعت الليل تحاول إغراء كزينوقراط ، فما خلبته فتنتها ، ولا هاجه سحرها ؛ لكنه لبث أمامها ينظر متجلداً ، كأنه قطعة من حجر أو قِدّة من جليد ..

ولملمت لايس أثوابها ، وخرجت من دار الفيلسوف مع الفجر وفى عينيها الحلوتين دموع الخيبة والفشل

وانتشر الخبر مع النور ، فجاء صواحبها مسرعات ، فابتسمت لايس ، وقالت : « لقد راهنت على إغواء إنسان . أما كزينوقراط فتمثال من جليد ...! »

ونظر لِداتُها بعضهن إلى بعض دهشات ، وقلن : « لك عذرك يا لايس ! »

هذا حديث أرسطوفان ، ما أدرى مبلغ التزويق أو التهويل فيه ، ولكنى ذكرت ، وقد تمثلت فى خاطرى صورة الفيلسوف حديثاً طريفاً للجاحظ ، عن نديم اسمه أبو المبارك الصابىء ، كان أحلى خلق الله حلاوة وظرافة وفكراً ، وأرعهن حديثاً ونادرة وعلماً ، وألطفهن مذهباً وطريقة وفهماً . وكان قد خصى نفسه وأربى على المائة . وكان ينادم الخلفاء والوزراء ويغشى بيوت حرمهن ، ويقضى الأوقات الطوال عندهن . وكان قلبه علوقاً بالجمال يتتيمه ويهيم فى أثره . فسئل عن ميله إلى النساء ، وقد تخطى المائة ؛ فزفر زفرة كادت تقصف ضلوعه وقال : « إنى لأسمع نغمة المرأة ، فأظن مرة أن كبدى قد ذابت ، وأظن مرة أنها قد انصدعت ، وأظن مرة أن عقلى قد اختلس ، وربما اضطرب فؤادى عند ضحك إحداهن ، حتى أظن أنه خرج من فى ... فكيف ألوم غيرى عليهن ؟ »

فما أشد اختلاف الطباع !

(دمشق) صلاح الدين المنجد

* * *

حاشية : « جاء فى مقالنا عن « الندوات الأدبية الخاصة فى الغرب » المنشور فى العدد (١٩٣) : « وصالون اللادى هولاند فى القرن الثالث عشر » وصوابه « القرن الثامن عشر »

ورسم اسم النقاد اللاذع والمصور دليكلوز Delecluz ، وصوابه Delecluze

يعلم ويحس أن التاريخ قصة نفاذ الروح البشرية إلى العالم والكائنات ، ولهذا كان يتتبع مسارب تلك الروح فى مظانها . مصادر التاريخ عنده كانت تماثيل فدياس وبراكستيل ، خطب بركليس وديموستين ، مسرحيات سوفكليس وأوريبدس ، ملاحم هوميروس ، وأغانى بنداروس ، قصص هيرودوت ، وتحليل توكيديدس . التاريخ عنده كان شيئاً واحداً : الروح البشرية فى مظاهرها المتعددة . جاءنى يوماً يطلب إلى رواية الفرس لأيسكيلوس ليتخذها مصدراً من مصادر المعرفة الحقة . المعرفة الإنسانية بمعركة سلامين .

درس أيوب التاريخ بمصر فكان الأول بين أقرانه ؛ وأرسل أيوب في بعثة إلى باريس ثمانى سنوات حيث أخذ العلم عن جلوتز وجنبير وسينوبوس وأمثالهم ممن تتطأطأ لهم الهامات فى العالم أجمع . ولم يكتف بتحصيل المعرفة من بطون الكتب وأفواه الأساتذة بل ذهب عاماً كاملاً إلى بلاد اليونان يقلب آثار الماضى المجيد ويستنطق الحجارة . وعاد أيوب إلى مصر بعد أن طوف بدلف وديلوس وفيليب وأولمپى وقد انصهرت المعرفة بنفسه فإذا بالتاريخ القديم عنده كذكريات حياته الخاصة يحدثك عنه فى طلاقة وحرارة وقوة فيكسبك .

عجيب أن يموت أيوب ! عجيب أن يجف هذا النبع قبل أن يتدفق ! لقد حاضر أيوب بالجامعة ثلاث سنوات فقط . لكن سل زملاءه ، سل تلاميذه وهم موضع أمله ، سلهم يخبروك عن هذا العالم الثبت الذكى الفؤاد الفصيح اللسان . لقد أخصب أيوب نفوساً ستذكره بالرحمة .

لم يتوان أيوب عن أداء رسالته . ولقد عقد العزم ونحن معه على أن نؤديها ، تنكر الناس أو رضوا ، ظلموا أو أنصفوا . ولقد أحس بالظلم تكوينا ناره فصمد له وشمر عن ساعده فترجم جزءاً هاماً من « تاريخ مصر » لهانوتو ، ذلك الكتاب الضخم الذى وضعته جماعة من علماء فرنسا بتكليف من ملكنا العظيم فؤاد الأول رحمه الله ، ورأت وزارة المعارف أن تنقله إلى لغتنا ، فأدرك بعض رجالها أن أيوباً فى طليعة من ينهضون بهذا العمل الجليل الشاق

وقالوا إن المرء لا يثبت علمه إلا إذا كان « دكتوراً » ، وكان أيوب يعد رسالة أصيلة باللغة الفرنسية عن تاريخ طيبة اليونانية . وقسوا على أيوب فلم يرد أن ينتظر حتى تسكن الحرب ، فيقدم رسالته إلى السوربون بل قدمها إلى جامعة فؤاد الأول ، فإذا به يمنح أعلى درجة تعرفها جامعتنا . وهذا ليس موضع فخارنا بأيوب ، وإنما نفخر بأنه استطاع أن يتمتع بصداقة أستاذنا جميعاً البروفسير جوجيه أستاذ التاريخ القديم بجامعات فرنسا سابقاً ومدير المعهد الفرنسى بالقاهرة فى السنين الأخيرة ، والذى كان من حظ جامعة فؤاد الأول أن تنتدبه للتدريس بها . لقد كان البروفسير جوجيه ولا يزال يعز أيوباً بل يحبه حب تقدير لعلمه وإخلاصه وتفتح نفسه ، وكان يخصه دائماً بالثناء . وكانت محبة البروفسير لتلميذه وزميله محبة فعالة لأنها قامت على أساس شريف : أساس العلم . فكنت تراه يعين أيوبا على كل أموره . صغيرها وكبيرها . عامها وخاصها . كم اهتزت نفسى لنبل هذا الأستاذ الكريم إذ حدثنى أصدقاء القاهرة أن البروفسير جوجيه لم يتخل عن أيوب أثناء مرضه ولا نسيه بل تردد عليه فى كل حين وأعانه على تلقى الموت بروح مطمئنة

وأحس أيوب أن ضعف المؤلفات العلمية من أكبر أسباب انحطاط التعليم ببلادنا انحطاطاً لا شك فيه ، فأخذ نفسه بوضع مؤلفين أحدهما عن النظم اليونانية والآخر عن النظم الرومانية . ولقد افترقنا منذ أشهر ، فلم أدر إلى أى مرحلة وصل فى كتابته ، ولكننى على ثقة من أنه قد خطا بهما خطوات واسعة ، لأن أيوبا كان عقلاً نشطاً ، وكان إذا قال نفذ وإذا وعد صدق . ترى ما مصير هذه الكتب ؟ ! إن كاتب هذه الأسطر يعتبرها نعمة من الله أن يستطيع ترتيب المواد وإتمام التفاصيل وإيضاح الغامض والإشراف على نشر تلك الأبحاث القيمة التى خلفها رفيق صباه ؛ وكلى أمل أن الجامعة والوزارة ستقدران قيمة هذه الأشياء فترصد المال اللازم لإذاعتها بين الناس

يجب أن تنشر رسالة الدكتوراه لأيوب ، والجزء الذى ترجمه أيوب من هانوتو ، ومذكرات أيوب ومقالاته . هذه كنوز . وقد ذاق أيوب المر فى حياته ، فهل لنا أن نكفر عن ذلك بالإحسان إلى ذكراه ؟

أما حزنى على هذا الصديق فأعز من أن يحتويه لفظ . اللهم ارحمه !

أيها الصديق الراحل ! سنجاهد كما جاهدت حتى نلحق بك . سنظل كما عهدتنا جنداً فى خدمة الروح . إلى اللقاء .

(الأسكندرية)

محمد مندور